إشكالية التأصيل عبر الحدوث الشّعري
لدى الأمير عبد القادر بين الاتصال والانقطاع

أ/ فريدة آيت حمدوش

جامعة وهران 1

Abstract:

The present study deals with the initial stepping-stones of modern Algerian poetry installation through El Amir Abdelkader's poetic collection. Based on historical inspiration, the poet's productions are viewed as an extension to the traditional Arabic poetry. This collection belongs to a time era characterised by rhetoric deficiency according to some critics like Nacer STAMBOUL. The latter asserts that El Amir's poetic presence is much more important than the absence of his poetry. The question raised is which position could be attributed to El Amir on the poetic ranking. Or, is his poetic making the result of his resistance against colonisation, then it reached its autonomy? From this examination, it becomes obvious that of El Amir's poetry is affiliated to the early ages, while constitutes at the same time the inauguration of modern Algerian poetry.

1- المحدّد اللّغوي والمقترب المعرفي لدلالة الأصل: تقترن الأصالة في محدّدها اللّغوي بالتّأصيل والثّبات، كما أنّها تقترن بمأخذ التفرّد كونها تنهض على علاقات التّرابط والتّمايز حيث تنزع إلى تلك الأنساق الأولى بوصفها منوالا لمقدّمات الشّروع والاحتذاء. ومن ثم فالأخذ بالمحدث لا ينعطف إلى تلك القطيعة التي لا تباشر تلك المصدرية التّكوينية من جهة مكوّناتها البانية لبلاغات الشّعر وأنساقه. ولعلّ التّنازع الذي عرفته أدبيات النّقد العربي حول المحدث والأصيل أفرد تلك الأنساق الشّعرية مثل حذو أبي تمام وبلاغة المتنبي وفلسفة المعري التي مكّنت تلك القراءات النّقدية المحدثة من أن تساءل مسألة المحدث. من جهة ما نتج عنه من مباني مغايرة إذ لم تتمكن

البلاغة العربيّة القديمة من الأخذ بها فظلّت ضمن دائرة المسكوت عنه إلى أن أخذت حظوتها ضمن البلاغة الجديدة في النّقد العربي المحدث. وعليه ظلّت الأصالة يراد منها التفرّد وتقصد التميّز وكذا حيازة المبنى غير المكرور والذي يجلي ذلك المفصل العابر من بلاغة التّأصيل إلى خصوصية التفرّد المبتغى والحامل لتلك الخصوصيات النّسقية والتي يراد منها استشعار ذلك التّزاوج بين شفرات الأبنيية لمكوّن الخطاب الشّعري المتفرّد الذي يوصف بالأصالة بوصفه «معبّرا عن الخصائص القومية المميّزة للشّعب الذي أنتج فيه، واللّغة التي كتب بها، كما يكون معبّرا عن ذاتية صاحبه التي تجعل ما ثقفه من تراث لغته، وما أفاده من ثمرات الثّقافة الأجنبيّة، عناصر تذوب في كيان جديد مختلف عن سابقيه»[1].

من هذا المقترب التصوّري نسعى إلى معالجة مسألة تأصيل الحدوث الشّعري لدى الأمير عبد القادر ضمن إطار تاريخي، فكري وثقافي ينم عن وعيه بضرورة تثبيت القيم الدينية والعقائدية التي سعى المستعمر إلى محاربتها واستئصالها من البلاد فباتت قضيّته الأولى الأساسية إذ عززتها ثقافته التي تصل إلى نمط من الأفق المعرفي وفق الوسم الذي خصّه به الباحث **بشير بويجرة** الذي عالج مسألة قلق الأمير في التصدّي لأولئك الذين خانوا وطنهم وتخلوا عن مبادئهم إذ راح يبحث عن مكمن التّعبير عن هذا الشّعور من غير أن يلجأ إلى تلك الفاعليّة من الإرباك فتخلخل تلك العلاقات الثّابتة للذّات الجماعيّة لذا «لم يكن بد من التّعبير عن ذلك بالشّعر، لأني أتصور أنّ مفهوم الشّعر عند الأمير وفي هذا الوقت وفي هذه الظروف بالذّات قد ينزاح عن مسألة عطائه الجمالي الفردي أو الأدبي الفني المحض نحو لبوس آخر يتسم بالمسحة الاستراتيجية الموحية بالانتماء إلى العروبة التي ديوانها الشعر والتي أنجبت عنتره بن شداد وامرؤ القيس وإلى الإسلام الذي أنصف الإنسان وأعاد له الاعتبار حتى برز عظماء الشّعر تحت راية الإسلام مثل أبو نواس والمتنبي وأبي فراس الحمداني وأبي تمام والبحتري وغيرهم كثر»[2].

يتّضح من خلال هذا المجمل من التصوّر أن تجربة **الأمير عبد القادر** الشّعرية في بداية تشكّلها نهضت على أساس تكريس لسياق معرفي تاريخي، كونه أفصح عن ضرورة ملحّة تمثّلت في المتن الشّعري لديه عبر مكوّنات تلك الظروف المحيطة بالأمير مما أفرز تلك الخصوصية الجمالية والحضارية. وفي الوقت ذاته نهض على أنساق شعرية تجلي تلك الوجدانية الأولى للخطاب الشّعري العربي القديم. ومن ثم أضحى النصّ الشّعري لدى الأمير عبد القادر رسالة فكريّة وقوميّة، إذ يقترن هذا الطّرح دوما بحمولة معرفية انتهت إليها مساءلة النّقاد في نحو **محمد حسين هيكل** الذي جعل من المضمون الفكري والوجداني أهمّ خصائص الأدب في نحو ما يذهب إليه ها هنا «إن الجانب الأساسي في الأدب هو الفكرة أو المضمون الفكري والوجداني للأديب. وأنّ هذا المضمون يكون قويّا حين يعكس عصرا خاصا أو بيئة خاصة. ولا عبرة بعد ذلك بالأسلوب إلا أن يقال بأنّه يزيد هذا المضمون قوّة وروعة أو يحول بين القارئ وبينه. بما يكون قد شابه من نقص أو تعثر فيه من اضطراب. ومناط القوّة في المضمون الفكري أو الوجداني للأديب هو النّفوس القوية التي تمثّل عصرها أو تمثّل أمّتها أو بيئتها»[3]

وفق هذا التصوّر يمكننا القول بأنّ شعر الأمير عبد القادر يقترن بخصائص تكاد تضارع مبادئه التي ترسّخت فيه من صدق وتلقائيّة وتوهّج ثقافي ووجدانيّة شعريّة بدئيّة، وعليه فقد ذهب الباحث **محمد السيد محمد علي الوزير** للإفصاح عن أهمّ خاصية ميّزت شعر الأمير في نحو قوله: «وثمة خصيصة لا تفارق أي نوع من أنواع شعره وملابساته هي الصّدور عن إرادة التّطبيق. تطبيق العلم على العمل وعلى السلوك وعلى نحو تقترن فيه الثقافة بالاعتقاد الجازم باعتبارهما معا»[4] ومنهنا تترسخ مقولة تكريس القيم الأخلاقية وغلبة القصيدة العمودية ومحدودية تلك الرجعة لمكانة البناء الفنّي في شعر الأمير عبد القادر الذي ورد عبر تلك الفواتح التي تجلي نهج أغراض الشّعر العربي القديم. إذ سعى من خلالها بعث تلك الأسيقة لبطولة الفرد والأنا والذّات الغالبة عبر أنساق الفخر وخطابات الإشادة بمكن الانتصار والغلبة. وبغية الحفاظ على هذه المقوّمات مما قلّص خصوصيّة تلك

المقصدية الإبداعية والإيحائية في شعره الذي يبدو في مجمله ينهض على فاعلية التّماهي بأنساق الخطابات العربيّة القديمة برمّته والأخذ بحذوه، على الرّغم من أنّ الباحث بشير بويجرة انعطف إليه بالدّراسة والمعالجة التّحليلية كي يصنف مجمل فاعليّته الشّعرية ضمن تلك الحركة الحديثة التي سعت للنّهوض بالشّعر وتجديده. مما أحدث انقساما بين النّقاد في تقويم موقع إحداثيات شعر الأمير عبد القادر في نحو هذا الطّرح «ففي النّقد الدّقيق لم يكن اسم الأمير عبد القادر عنوانا على جودة الشّعر، ومن النّقاد من يعيبه لأنّه يقيسه بالملك الضليل وبشار وأبي تمام والبحتري والمتنبي والمعري، مع أن خير من اشتهر من شعراء عصره على كثرتهم ابن زاكور بالمغرب، ومحمد بن سليمان بالجزائر، وعبد الغفار الأخرس، بالعراق، وحمد الشريف بالسودان وأخيرا الشّاعران المبدعان المجدّدان في أغراض الشّعر ونسجه على تفاوت بينهما لا شك ملحوظ وهما محمود قبادو بتونس المتوفى سنة 1868 ومحمود سامي البارودي المتوفى سنة 1904».[5]

ومن هنا تتبدى فكرة الأصالة التي تنهض على ذلك التّرجيع للأشكال القديمة التي تجسّد خصوصيّة ذلك النّسق الشّعري القديم وذلك الطّرح في انتساب الشّاعرية وريادة التّحديث للبارودي. ومن هنا نتساءل عن موقع شعر الأمير من سلميات هذه الرّيادة؟، وهل من الممكن أن يأخذ الأمير عبد القادر فاتحة لتأصيل شعري حديث؟، أم أنّه وحدة شعرية أوجدتها أسيقة المقاومة ومن ثم انقطعت فاستقلت بذاتها؟.

1- شعر الأمير بين تاريخية الحضور وفرادة الحدث الشعري: يمثّل **الأمير عبد القادر بن محي الدين** حلقة شعرية وصوفية في الآن نفسه عكسه حجم رافده البطولي الذي أثر في الكثير من رموز المقاومات الشّعبية حيث أنتج حضورا بطوليا في مقاومة الاحتلال الفرنسي، ولعلّ الأمر يؤول إلى الحقل الصّوفي الذي كان ينهجه الأمير عبد القادر بوصفه سليل أسرة دينية وثقافة فقهية أصيلة، إضافة إلى تآليفه الصّوفية ومن ضمنها (**المواقف**) ورسالته (**ذكرى العاقل وتنبيه الغافل**)هذا إضافة إلى القرية التي ولد بها (**القيطنة**) ناحية معسكر والتي كانت مقرا لزاوية الشّيخ (**عبد القادر الجيلاني**)

إحدى الطّرق الصّوفية التي كان يشرف عليها والده الشّيخ **محي الدين**. وعلى الرّغم من أنّ الشّاعر الفارس كان يعايش مضامين شعرية في واقعه وفي مواجهة حضارة غربية وافدة تمارس فعل الغزو، إلا أنّ حجم المقاومة التي خاضها الأمير عبد القادر لا تتكافأ وفق تصور الباحث **ناصر سطمبول** مع الحجم الشّعري الذي أنتجه ذلك أن شعره لم يؤسس إحياء شعريا ولم يظفر بمكانة البعث الشّعري، نحو ما التمسه الباحث لدى الشّاعر محمود سامي البارودي، كما أنّ بلاغة شعره لم تصل إلى سمو القصيدة المأمولة وتخوم البناء الشّعري الواعد كالذي نجده لدى الجواهري وغيره حيث يذهب في طرحه: «يعدّ شعر الأمير في مجموعه حفرية منزاحة، كونها لم تركبها التّجارب الشّعرية طبقا عن طبق ولم تتأوبها أنساق الأبنية المتعاقبة على الرّغم من كونها مزدانة بذلك التّماهي من أعراف البلاغة العربيّة القديمة والفواتح الشّعرية والوسائط الموضوعاتية والأقفال النصّية لخطابات الحكمة وعليه فإنّ حاصله الشّعري لم ينهض على ذلك التّباين من جهة محمولاته السّياقية والتي تواكب محدثات العصر آنذاك، كما أنّ مجموع تراكيبه البيانية لزمت إلى ذلك الاستتباع البياني والتعقّب البلاغي وكذا تقفيه لتلك الطّبيعة المحايثة للأغراض الشّعرية القديمة. من هنا يمكن أن نسائل محصلة شعر الأمير، هل هو ذلك الجزء التّحتي الحاصل من شموخ الكلّ الشّعري القديم؟ أم هو الكل الحاصل دون عقب، ومن ثم فهو لا يمثل إلا ذاته، إذ لم يتعقبه جيل شعري معيّن ومقدّر بالضّبط التّاريخي أو تضارعه أنساق شعرية مستتبعة وإذا كان غير ذلك فكيف نحصي من تعقبه وكيف نجلي تعداد من تقفى نهجه، هذا إذا أعددناه أصلا جامعا وفعلا شاملا للشّروع الشّعري، فالأصل مفرز بالضّرورة لما يرد تحته من أنواع أو فروع أو صنافة شعرية محدّدة زمنيا، وتلك هي الدّلالة الإلزامية لشعر الأمير حين تختزل حاصل تصوّر المسمى للنّسق الحاصل في الذهن، إنّه المرمى المفارق للمجايلة الشّعرية».[6]

يتّضح من هذا أنّشعر الأمير عبد القادر لم يتداخل مع ما يعقبه كي ينتج الآخر المتجدّد شعريا لذلك وقع شعر الأمير عبد القادر في دائرة مغلقة أشبه ما تكون بتلك الواحة فيرد عنها التّكاثر الباسق والتّناهي فيعبر حضوره إلى تلك الشفرات الشّعرية حيث تدرك عبر ذلك التقفي لشعر الأمير عبد القادر في مشروعه الأوّل.إذ إنّ شعره في جوهر تشكّله يكاد يكون امتدادا لشعر **عنتره** و**امرئ القيس** وهنا يستحضر الباحث سطمبول نصّا شعريا يكاد يقارب في بنائه الشّعر القديم وفق هذا النّحو الشّعري:

وبي تَتقي يـومَ الطعـــان فـــوارسُ تخالينهم في الحرب أمثالُ أشبال
إذا ما اشتكت خيلي الجراح تحمحماً أقول لها صبراً كصبري وإجمالي
وأبــذلُ في الرّوع نفسا كريمـةً على أنها في الســلـــم أغلى من الغالي
وعني سلي جيش الفرنسيـــس تعلمي بــأن مناياهم بسيفي وُعسـالي[7]

تترجم هذه العينة الشّعرية إجرائية استحضار النّسق الشّعري القديم بما يقارب استراتيجية التّناص، ومن ثمّ تكاد تكون شخصية عنترة العبسي وامرئ القيس موسومة بشعر الأمير في مثل هذا الطّرح «تلمس في فخره أثر عنتره والمتنبي وأضرابهما، تغنى مثلهما بالشّجاعة والبّأس، فكأن الأمير يحبّ الشّعر ويراه زينة وحلية وقد أجاز الشّعراء الذين امتدحوه»[8] مع أنّها تفتقر إلى بلاغة الشّعر ورؤاه الجمالية، كما أنهّا لم تفد من نسقه البنائي نحو ما نجده لدى البارودي، ومع ذلك يظلّ شعر الأمير عبد القادر في تصوّر الباحث حتمية ضرورية بكل ما تواضعت عليه بلاغته من رؤى، ذلك أنّ الحضور الشّعري في زمن الأمير أهم بكثير من عدم حضوره، كما أنّه إثبات للتّأسيس وإسهام في بناء تاريخ وتأصيل لهويّة وممارسةلوجود[9].

ولم يقتصر استحضاره لمثل هذه النّماذج الشّعرية الجاهلية بوصفها أنماطا بدئية وحسب وإنما استحضر العيّنات من الخطاب الشّعري الصّوفي الذي يعتمد على النّسق الرّمزي، وعلى نحو تلك المقارنة التي أقامها الباحث **فؤاد صالح السيد** بين قصيدة ابن فارض المشبّعة برموز مستمدة من رؤية الصّوفي للموجودات وهي الخمرة والحبيب، وبين

القصيدة التي تطرق فيها الأمير لذكر الخمرة في طرحه «تطرق الأمير لذكر هذه الخمرة في قصيدة صوفية واحدة من قصائده، وقصيدة الأمير الصّوفية التي ضمنها، ذكر الخمرة تكاد تكون طبقا الأصل لقصيدة ابن الفارض. بيد أنّ الفّرق الوحيد بينهما هو أنّ موضوع قصيدة ابن الفارض الخمرة الإلهية فقط، أما قصيدة الأمير فيكون الموضوع الخمري جزءا منها»[10] وعلى هذا الأساس يستحضر مقطعا شعريا من القصيدة الصّوفية الخمرية لابن الفارض وفق هذا النّحو من العرض:

شَرِبْنَا على ذكْرِ الحبيبِ مُدامَـةً سكِرْنَا بها من قبل أن يُخلق الكَرْمُ

فإن ذُكِرَتْ في الحَيّ أصبحَ أهلُهُ نَشاوى ولا عـــارٌ عليهمْ ولا إثـــم

ولو نَظَرَ النُّدْمَـانُ خَتمَ إنائِهـا لأسكَرَهُمْ من دونِها ذلكَ الختـــم

وفي حذوه، يتجلى ذلك التّواصل الشّعري والتّطابق النصّي في شعر الأمير الصّوفي الخمري في هذا النّحو:

ويشرب كأسا صرفة من مدامة فيا حبذا كأس ويا حبذا خمـــر

فلا غول فيها لا ولا عنها نزفة وليس لها برد وليس لها حـــر

فلو نظر الأملاك ختم إنائـــها تخلوا عن الأملاك طوعا ولا قهر[11]

وعبر هذا التقابل المقطعي بين الشّاعرين، يلاحظ الباحث أنّ البيت الأوّل من قصيدة الأمير تكرار للبيت الأوّل من قصيدة ابن الفارض، كما يظهر التّطابق بين البيت الثّالث للأمير والبيت الثّالث لابن الفارض وفي ذلك إشارة إلى أفق الاحتذاء الشّعري بما سبقه من نسق شعر ابن الفارض.

ضمن هذا المقترب النقّدي لدى الباحث **بشير بويجرة** فالأمير يعد رئدا من روّاد الشّعر العربي الحديث، هذا الشّاعر الذي كان مقلّدا للشّعر العربي القديم ومن ثم تقفى مسلك فحول الشّعراء القدامى نحو شعر: امرئ القيس وعنتره في فخره ووصفه، إذ عدّه الباحث من المجدّدين في الشّعر وأحد روّاده في نحو ما يذهب إليه «... بأنّه كان إحيائيا لروح وشكل القصيدة العربيّة وكان معاصرا لواقعه ولما كان يتميّز به من

تهلهل وضعف في الإبداع الشّعري وفيما واكب به من وصف دقيق وتعبير ملم بكل ما ألمّ به هو وبأمّته ووطنه من محن وفجائع»[12] ومن ثم تجلّت ملامح الحداثة في شعر الأمير عبر مستويين هما:

مستوى حوار الحضارات والأديان ومستوى التّزاوج بين سياق الريف وسياق المدينة.

يُبرز المستوى الأوّل انفتاح الأمير عبد القادر وعدم انقطاعه عن النّاس وتقديره للمواقف الإنسانية وللعقل البشري القادر على تجنب ما يمكن تجنبه من خسائر وكوارث وحرصه على تحقيق مبادئ الإسلام التي أفنى حياته لأجلها بسلام «وتبرز دلائل هذه الدّعوة وفي صدق نيتها من خلال عدم اعتماد الأمير للمصطلحات الدينية المهيجة للعواطف والاعتقادات المثيرة للنعرات مثل ما رأينا فيما سبق من عدم ذكره للعدو الفرنسي بما لا يحبّه ولا يرضاه من المصطلحات التي تثير الكراهيّة والحقد بين بني الإنسان كيفما كانت ديانتهم»[13] يبدو أنّ مساعي الشّاعر الخيرية وآفاقه التصوّرية الكامنة لمعابر التراحم ومن ثم وردت واضحة في تحاشي ما يعمق الهوّة بين الأديان إذ لم ينأى عن العمل والانخراط في جيشه وصناعة أسلحته من مسيحيين ويهود، حيث وردت تلك الرؤيا الحضارية كونها إرهاصا أوليا لتأسيس حداثي على مستوى الشّعر والتّفكير والفعل.

كما يتمثل المستوى التّالي في تيمة التراوح بين تيمات الريف وسياق المدينة، مثل هذه المفارقة التي سعى المستعمر إلى ترسيخها. وبمجرّد أن طرحها الأمير في شعره يؤكد أنّه «كان واعيا بخطورتها وحساسيتها ومقصديتها، مما يدفعني إلى القول بأنّه يمكن أن تشكّل هذه "التيمة" ثورة الفساد وبذرة الانفصال حين يتأكّد لنا يوما بعد يوم في واقعنا العربي الإسلامي التّباين والتّضاد بين الأرياف وبين المدن في الدّول العربيّة التي توجد فيها قصور الرّؤساء والمسؤولين والوزراء، بل وحتى بين الأحياء الشّعبية في تلك المدن وبين الأحياء فيها»[14] ومما يؤكّد هذا وقع أعراف الريّف في شعر الأمير

قصيدته **(ما في البداوة من عيب)** الريّف الذي أفرز تلك الحماية لفاعليّة الأعراف والأديان، فسياق الرّيف مفرز للبطولة لتجليّات القيم. وبهذا يكون الأمير قد سبق غيره من الأدباء العرب في الإشادة بأفضلية الرّيف في الشّعر. وفقا لهذا التصوّر يتساءل الباحث **بشير بويجرة:** التّأصيل للحداثة والمعاصرة في الشّعر العربي للأمير عبد القادر أم للبارودي؟

تتّضح الإجابة عن هذا التّساؤل فيما توصل إليه الباحث لدى قراءته لشعر الأمير حيث يذهب في طرحه: «حين نكون، من خلال على ما تقدم، قد ألمحنا إلى بعض القضايا التي تشكّل ارتكازا أساسيا في الميل والإقرار بأنّ الشّاعر الجزائري الأمير عبد القادر قد ساهم بقسط وافر في مدّ الجسور بين شعريّة مغاربية كانت تنبثق من تحت رماد الشّعرية العربيّة في المشرق التي كانت قد أفل نجمها منذ استيلاء المماليك العثمانيين على الحكم، شعرية عربية حديثة ومعاصرة قد تجلّت بعض ملامحها عند الأمير، في امتلاكه الجرأة والشّجاعة، على الإبداع الشّعري في مضامين وقضايا مازالت، حتى الآن تشكل المحنة العربيّة والهمّ الوطني».[15]

إنّ طرح الباحث **بشير بويجرة** ينمّ عن رؤية واضحة في انتساب الشّاعرية للأمير عبد القادر محتكما إلى التّقدير الزمني والضّبط التّاريخي أكثر من الاحتكام إلى فرادة النّسق البياني، أو أنّه يحتكم إلى مرجعية السّياق الزّمني بدل النّسق البلاغي لتركيب الخطاب الشّعري، ليعلن الباحث أسبقية الأمير زمنيا عن الشّاعر المصري **محمود سامي البارودي** نافيا في الوقت ذاته تأثر الأمير بهذا الشّاعر الإحيائي استنادا للسّبق الزمني ليصبح الأمير هو الرّائد المحدث للشّعر العربي وليس البارودي.

هذه المقاربة والمفاضلة يتحاشى الباحث **أحمد يوسف** الانخراط ضمن مقدراتها وفق مسلمات فنية وتاريخيّة في نحو ما يذهب إليه: «وهل يجوز أن نكّد الذّهن ونتكلف في البحث لتأكيد قيام نهضة شعرية في الجزائر يمثل الأمير عبد القادر عتبتها، ونقوم بالموازنة بين ما كتبه حافظ إبراهيم وما نظمه الشّاعر الجزائري محمد

اللقاني بخصوص موضوع اللّغة العربيّة، وأسلمنا الرّيادة لشعرائنا من منطلق عاطفي؟ فهل يغيّر هذا الانتصار العاطفي لشعر الأمير من حقيقة ركود الحركة الشّعرية في زمنه أو بعده بعقود؟»[16] يرجع الباحث تقدير عطاء الأمير عبد القادر الشّعري، حيث هو ضرب من الخلط الذي يمتزج بأحكام عاطفية مرتبطة بتقدير شخصية الأمير عبد القادر في كفاحه ومكانته الرّوحية التي ينهض على حيازتها ولذا نلفي الباحث يعرض أدلته في نفي الرّيادة الشّعرية الحديثة للأمير في نحو هذا الطرح: «إن العودة إلى الديوان وقراءة شعره قراءة متمعنة لا تحتاج إلى ذوق رفيع حتى تقتنع بأنّ هذا الشّعر متواضع من النّاحية الفنّية، ولا يجب الخلط بين شخصيته البطولية ومآثره التّاريخية ومنزلته الرّوحية وبين شعره الذي كان دون المستوى الرفيع لمحاكاة الشّعر القديم»[17] إذ من غير المعقول أن ينشغل الأمير عبد القادر عن واجبه البطولي للدّفاع عن مقومات الشّخصية الجزائريّة التي استباحها الاستعمار لينصرف إلى إبداع أشكال تعبيرية جديدة.

فلم يجد الأمير قبله تراكما شعريا قد يعينه على إحداث قصائد شعرية تنهض على التّجاوز «أو مؤسسات تعليمية وقافية أو احتكاكا ثقافيا وعلميا بالمشرق العربي حتى يكون كل ذلك سندا لهم، لأنّه لا تجاوز ولا إبداع في تصوّرنا خارج مثل هذه التّراكمات الشّعرية...»[18] ومن هنا يطرح الباحث فكرة اليتم وانقطاع السّلالة الشّعرية في الجزائر إذ لم يتمكن شعر الأمير أن يخلق حركة شعرية حديثة تستمد مقوّماتها الفنّية من التّراث الشّعري القديم، كما أنّه لم يفد من محاولات الإحياء التي شهدتها الحركة الشّعرية بالمشرق العربي. ليظل شعره متواضعا لا يرقى إلى مستوى الإبداع أو التمثل القوي للشّعر العربي كونه لم يجد سندا نقديا لتطوير حدوث الشّعر لديه من مثل هذا الطرح «وهكذا ظلّت التّجربة الشّعرية تحس باليتم نتيجة غياب حركة نقدية قوية ترشدها وتوجّهها وتشجعها وتفتح أمامها آفاقا واسعة لتجديد بلاغتها وتطوير لغته وحمايتها من الجمود وتحفيزها على الإبداع».[19]

في ظلّ هذا المعطى الذي أفرز خفوت السّلالة الشّعرية التي لا يمكن للنّقد أن يسائلها مساءلة جمالية، لم يستطع شعر الأمير عبد القادر أن يسدّ الفراغ الذي كان غالبا آنذاك في أن يخلق حركة شعرية متواصلة مما يعزز مقولة اليتم كونها ظاهرة لانقطاع بين الأجيال الشّعرية في الجزائر بل وبين جميع الأجيال الشّعرية في المغرب من مثل هذا الطّرح «وبدلا من الاتّصال الوهمي بين الأجيال الشّعرية في المغرب علينا الانتباه إلى الانقطاع، الذي كانت له السطوة. فتاريخنا الشعري هو تاريخ انقطاعات لا حدّ لها. بل هو تاريخ يستعصي على خطاب التّوريث وخطاب البنوة وخطاب الاستمرارية»[20]. وليس في جملة هذه الأحكام تقليلا من شخصية الأمير عبد القادر الذي يمثل إحدى رموز الشّخصية الوطنيّة ببطولاتها في مقاومة المحتل وسر شوكته، وإنّما هو اقتراب من شعر الأمير كي تجلي حقيقة حضوره الإبداعي الذي يتقصده عبر ذلك المقتضى من الضّبط المراد معالجته.

الهوامش:

1- شكري عياد، مفهوم الأصالة والتّجديد والثّقافة العربية المعاصرة، مؤتمر الأصالة والتجديد في الثقافة العربية المعاصرة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة، 1971، ص 61.

2- بشير بويجرة محمد، الأمير عبد القادر رائد الشّعر العربي الحديث، منشورات دار الأديب، وهران، 2007، ص 26.

3- محمد الكتاني، الصراع بين القديم والجديد، ج2، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1982، ص669.

4- محمد السيد محمد علي الوزير، الأمير عبد القادر الجزائري ثقافته وأثرها في أدبه، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986، ص 168.

5- المرجع نفسه، ص 138.

6- سطمبول ناصر، أوليات الشّعر الجزائري قراءة في أنماطه البدئية، الجمهورية، ع1147، ملحق الاثنين المعرفي، 2000.

7- الأمير عبد القادر الجزائري، الديوان، جمع وتحقيق العربي دحو، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود، البابطين للإبداع الشعري، ط3، 2006، ص 49.

8- أنيسة بركات، الجانب الأدبي في شخصية الأمير عبد القادر، مجلة التاريخ، المركز الوطني للدراسات التاريخية، 1983، ص 108.

9- ينظر: سطمبول ناصر، أوليات الشّعر الجزائري قراءة في أنماطه البدئية، الجمهورية، ع 1147، ملحق الاثنين المعرفي، 2000.

10- فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص 229.

11- الأمير عبد القادر، الديوان، ص 111.

12- بشير بويجرة، الأمير عبد القادر رائد الشّعر العربي الحديث، ص 120.

13- المرجع نفسه، ص 115.

14- المرجع نفسه، ص 117.

15- المرجع نفسه، ص 119.

16- أحمد يوسف، السلالة الشّعرية في الجزائر علامات الخفوت وسيمياء اليتم، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2004، ص 57.

17- المرجع نفسه، ص 57.

18- المرجع نفسه، ص 61.

19- المرجع نفسه، ص 79.

20- مهدي التمامي، حوار مع الشّاعر محمد بنيس، مجلة شعريات، ع3/ 4، الشركة التونسية للنشر وتنمية فنون الرسم، 2007، 2008، ص 52.